الأدب العربي في روسيا
الأمس واليوم والمستقبل

ثيكتوريا زاريتوفسكايا ■

تاريخ ترجمة العربية في روسيا

فيما عدا الاهتمام البيّن بترجمة القرآن إلى اللغة الروسية ظلّت الترجمات الأخرى ـ من أدب وفلسفة وغيرهما من فروع المعرفة، ولفترة زمنية طويلة ـ محدودة وغير متداولة بين القرّاء، كما بقيت اللغة العربية من ضمن اللغات الأقل اهتماماً لدى المترجمين الروس، وذلك إذا ما قورنت باللغات الأوروبية وبعض اللغات الآسيوية البارزة. في الآونة الأخيرة بدأ الكتاب العربي المترجم يخطو خطواته ـ وإن بخجلٍ ـ في سوق الكتاب الروسية وبين رفوف المكتبات، فضلاً عن إرساء نظرية للترجمة العربية ـ الروسية.

أُنجزت الترجمة الأولى للقرآن الكريم إلى الروسية عام 1716 بأمرٍ من القيصر بطرس الأول، وحققها أستاذ الفلسفة في جامعة بادوفا الإيطالية «بيوتر بوستينكوف» وهو روسي الأصل. وإن كانت هذه النسخة من ترجمة القرآن إلى الروسية هي الأولى زمنياً؛ فإنها جرت عبر النسخة الفرنسية للقرآن بتوقيع «أندريه دي رييه» وليس عن اللغة العربية مباشرة. وقد اتسمت هذه الترجمة بالقصور وكثرة

■ مستعربة ومترجمة روسية، أستاذة اللغة العربية في الجامعة الروسية للصداقة بين الشعوب.

الأخطاء بداية من اسم الكتاب الذي تُرجم بِـ: (القانون التركي)، كما لم يأخذ المترجم على عاتقه مراجعة النصّ الفرنسي، فحمّل النصّ الروسي كل الأخطاء التي وردت في النسخة الفرنسية، ناهيك عن الحذوفات التي عَمَدَ إليها المترجم في النسخة الروسية.

الترجمة التالية للقرآن تمّت عام 1790، وكانت بمثابة تصحيح للترجمة الأولى؛ حيث قام الكاتب المسرحي الروسي «ميخائيل ڤيروڤكين» بترجمة النصّ الفرنسي ذاته لدى رييه. ومن المعروف أن شاعر روسيا الكبير ألكسندر بوشكين قد استفاد من هذه الترجمة، ومنها استلهم أفكاره وصاغ وجدانياته عن القرآن في ديوان (محاكاة القرآن) وبتسمية أخرى (من وحي القرآن 1824). بعدها وفي عام 1792 صدرت الترجمة الثالثة للقرآن، وجاءت عبر ترجمة نسخة «جورج سيل» الإنجليزية، قام بها المترجم الروسي «ألكسيه كولماكف»، وقد راعى فيها المترجم الأمانة التقنية والمعرفية في الترجمة. وابتداءً من عام 1864 تمّت طباعة ترجمة «نيكولايڤ» للقرآن لست مرات، فكانت الأشهر في وقتها، وقد تمّت ترجمة هذه النسخة من اللغة الفرنسية عن نسخة المستشرق البولوني الفرنسي «بيبرشتاين كازميرسكي».

في عام 1871 أنجز الجنرال الروسي خريج قسم الدراسات الشرقية بجامعة بطرسبورغ «دميتري بوغوسلاڤسكي» أول ترجمة للقرآن تتمّ من اللغة العربية إلى الروسية (ومن الطرافة أن الترجمة الحرفية لاسم بوغوسلاڤسكي هي: الذي يحمدُ اللّه). وقد كرّس بوغوسلاڤسكي حياته للخدمة الدبلوماسية في تركيا، كما توجد إشارات ومعلومات متفرقة على أنه قامَ بالترجمة من العربية والتركية والطاجيكية إلى اللغة الروسية، إلا أن ترجماته ـ ولسوءِ الحظِ ـ ضاعت وطوي أثرها. حتى إن ترجمته للقرآن ظلت مختفية لعقود طويلة ولم تظهر للعيان إلا عام 1995، ولهذا تمّ التعريف (خطأً) بترجمة المستشرق والباحث الإسلامي من مدينة قازان غوردي سابلوكوڤ للقرآن، المُنجزة عام 1878 بوصفها أول ترجمة مباشرة تتم من العربية إلى الروسية. أما ترجمة سابلوكوڤ هذه فحازت اعتراف فقهاء اللغة بأهميتها وسطوع تعابيرها.

الترجمات اللاحقة للقرآن صدرت في زمن تاريخي جديد لروسيا، وجديد للاستشراق الروسي عموماً، ونعني به الزمن السوفييتي.

لم يُكتب لترجمةِ المستشرق والأكاديمي الروسي البارز إغناتي كراتشكوفسكي (1883 ـ 1951) أن تكتمل؛ فقد توفي قبل إتمام عمله الكبير والمهم، ومع ذلك كانت مسوّدة ترجمته للقرآن من اللغة العربية مليئة بالنقل الحرفي للمرادفات والتراكيب العربية. إلى جانب ذلك ـ وبفضل نشاط كراتشكوفسكي ومدرسة الاستعراب السوفييتي التي أنشأها ـ تمّ إحراز قفزة نوعية وتراكمية في الترجمة العربية ـ الروسية، لا سيما في مجال الأدب؛ حيث أسست المدرسة السوفييتية لتقاليد البحث النظري والمنهجي لتراث الكتّاب العرب وتاريخ الثقافة العربية. لقد وضعت مؤلفات كراتشكوفسكي في الأدب العربي المعاصر والثقافة العربية ـ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ـ الأُسس للبحوث العلمية في هذا الاختصاص إبّان الفترة السوفييتية، وذلك إلى جانب استفادة بعض البلدان الأوروبية من مؤلفات هذا العالم. في هذا الصدد تقول المستعربة الروسية المعروفة، وتلميذة كراتشكوفسكي أولغا فرولوفا (1926 ـ 2015) في كتابها الذي أصدرته عام 2007، واحتفت فيه بأستاذها وعنونته باسمه: «كم كان عظيماً دوره في أنشطة هيئة التحرير المكونة من خبراء قسم الاستشراق في دار «الأدب العالمي» للنشر بين أعوام 1919 ـ 1925، لقد وصف كراتشكوفسكي عمله ذاك بالشيءِ الذي لا يتكرر ولا يشبهه شيء، وهو عمل يثبت أن منهجية الاشتغال الاستشراقي قد تغيّرت جذرياً بعد عام 1917 (عام الثورة البلشفية التي أسقطت الحكم القيصري في روسيا)... وقد اشترك كراتشكوفسكي في جميع المشاريع المتعلقة بالأدب العربي شخصياً وبشكلٍ فعّال إما كمحررٍ أو واضعٍ مقدمات، ومن بين الأعمال التي وضع مقدّماتها نذكر الآتي:

في عام 1871 أنجز الجنرال الروسي خريج قسم الدراسات الشرقية بجامعة بطرسبورغ «دميتري بوغوسلافسكي» أول ترجمة للقرآن تتمّ من اللغة العربية إلى الروسية (ومن الطرافة أن الترجمة الحرفية لاسم بوغوسلافسكي هي: الذي يحمدُ الله).

(وصايا لقمان الحكيم، كتاب الاعتبار لأسـامة بن منقذ، رواية ابن طفيل الفلسفية، ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة لابن المقفع، طوق الحمامة لابن حزم، عودة الروح لتوفيق الحكيم). كما قام بترجمة قصائد الشاعر العربي الكلاسيكي الشـنفرى وجمعها تحت عنوان: (أغاني الصحراء)، وقصائد لأمين الريحاني، ورواية (الأيام) لطه حسين. وتقديراً لعمل كراتشكوڤسكي في مجال الاستعراب الروسي نشير إلى ما جاء على لسانه: «الأهم أن الأركان الأساسية قد وضعت، كما تم إرساء مبادئ وقواعد العمل ورسم خطوطه العريضة» (ص17).

بالإمكان التحدث عن انبعاثٍ أول للاستعراب الروسي حدث في الفترة بين 1929 و1939؛ حيث تدفقت القدرة المسـتقلة في أوصال الاستعراب الروسي، وانفجرت طاقته الإبداعية الأصيلة. وتسجل ترجمة كتاب (ألف ليلة وليلة) أو (الليالي العربية) بتسـمية شـعبية أخرى ـ والتي قام بها المستعرب ميخائيل سالييه ـ تسجل الانطلاقة الكبرى في طريق ترجمة المتون العربية من لغتها الأصلية، بعد أن كانت النسـخة المترجمة عبر اللغة الفرنسية المتداولة بين القرّاء. في هـذه الفترة جـرى إعداد الكـوادر المتخصصة في الاسـتعراب والترجمة الأدبيـة من اللغـة العربية. ومن بيـن المسـتعربين الذين لمعت أسماؤهم نذكر منهم: آنا دولينينا، ڤاليريا كيربيتشـينكو، بوريس تشيكوڤ، أولغا فلاسوڤا، الصحافي المعروف ليونيد ميدڤيدكو، رئيس معهد الدراسات الاستشراقية التطبيقية دميتري ميكولسكي، الدبلوماسي فلاديمير فولوساتوڤ. ومن الباحثين والعلماء نذكر: فلاديمير شغال، إيغور إيرماكوف وغيرهما. وقد قيّض للاسـتعراب الروسـي أن يتبـوأ مكانته بدعـمٍ حكومي قدّمتـه الدولة السوڤييتية؛ حيثُ كانت مهتمة بتطوير علاقاتها مع العالم العربي.

تنقسم الأعمال العربية التي تصدى لها المترجمون والمستعربون الروس إلى ثلاث مجموعـات: المجموعة الأولـى اهتمت بالتراث الشـعري والنثري العربي في مرحلته الذهبية، ومن تلك الأعمال المترجمة نذكر: ديوان المتنبي، مقامات الحريري، مقامات بديع الزمان الهمذاني، إلى جانب مجموعة متفرقة من الحكايات الشـعبية العربية. المجموعة الثانيـة أُخذت من مؤلفات نثرية تناولت مواضيع تتعلّق بالصراع الاجتماعي والسياسـي فـي المنطقة العربية،

وأعمال ما عرف بـأدب المقاومة، وأعمـال أخرى كان أصحابهـا على علاقة إيدلوجية بالاتحاد السـوفييتي. ومن أبـرز الترجمات التـي تحققت في هذا الجانب نذكر أعمال: محمود تيمور، غسـان كنفاني، عبد الرحمٰن الشرقاوي، إبراهيم الكوني، الطاهر وطار، علي عقلة عرسان وآخرين. المجموعة الثالثة احتوت أعمال الكتّاب والمبدعين العرب ممن أحرزوا شهرة عالمية واحتفت بهم الثقافات الأجنبية كما حازت أعمالهم على الجوائز الدولية، ومن هذه النخبة نذكر أسـماء: جبران خليل جبران، نجيـب محفوظ، الطيب صالح، يوسـف إدريس، توفيق الحكيم وغيرهم من الكتّاب المرموقين... ويمكن الاطلاع على قائمة موسعة من الترجمات على الموقع التالي:

http://arablit.narod.ru/text.htm

بالإمكان التحدث عن انبعاثٍ أول للاستعراب الروسي حدث في الفترة بين 1929 و 1939؛ حيث تدفقت القدرة المستقلة في أوصال الاستعراب الروسي، وانفجرت طاقته الإبداعية الأصيلة.

في التسـعينات من القرن الماضي، تسـبب انهيار الاتحاد السوفييتي بضررٍ في البُنى الثقافية، الذي ظهر على حركة الترجمة والنشر خاصة في مجـال الأدب المترجم بعمومه ومـن اللغات غير الأوروبيـة على وجه الخصوص. ففـي ظلّ ظروف اقتصادية صعبة، وعند منعطف حادّ تمرّ به روسيا، كان فيه المجتمع على أعتاب زمن جديد، في ظل هذه الظروف انحسرت الترجمة من اللغة العربية، وقل الاهتمام بترجمة الأدب العربي إلى أدنى مستوى له منذ ربيعه السوفييتي الأول. وقد ترتب على هذا الوضع أن انقطع حبل التواصل بين المنتج الإبداعي العربي والمتلقي الروسـي، بحيث أصبح الكتاب العربي المترجم محجوباً عنِ السوق ورفوفاً لمكتبات. وقد تسبب هذا الانقطاع (المعرفي) عن العالم العربي في نشوءِ حلقة مفرغة ظل أثرها ماثلاً حتى بعد استقرار الأوضاع في البلاد؛ ذلك لأنه ـ وتوازياً مع خروج روسـيا من أزمتها الخانقة واجتيازها المخاض الانتقالي العسير ـ كان المشهد في الشرق الأوسط ينبئ بحالةِ تململ ويُنذر بزلازل قادمة، في حين أن الشـارع الروسـي ـ وبسـبب انقطاع التواصل مع المشرق العربي ـ بقي شبه معزول عمّا يحدث مع أصدقاء الأمس.

في المقابل ظلّــت المحاولات لترجمة القرآن مســتمرة، وظلَّ المترجمون ملتزمين بسعيهم في اســتنباط الترجمة المُثلى للقرآن، فظهرت ترجمتان في وقتٍ متقــارب، اتخذت كل منهما المنحى الأدبي/ الشــعري في ترجمة معاني القرآن: الأولــى ترجمة ڤاليريــا بوروخوفا عام 1991 (من اللغــة الإنجليزية) والثانية للمســتعرب وعالم الاستشراق البارز تيودور شــومو ڤسكي عام 1995 (من اللغة العربية). وفي العام نفســه صدرت ترجمة للقــرآن قام بها اللغوي وعضو أكاديمية العلوم الملكية الأردنية ماغوميد نوري أوسمانوڤ.

في الألفية الجديدة، وفي ظل استعادة العلاقات الروسية ـ العربية زخمها (وإن بأشــكالٍ ومصالح تختلف عن العهد المنصرم) شَــهدَ التبــادل الثقافي (بدوره) انتعاشــاً ملحوظاً، وبدأت مرحلة جديدة على صعيد الترجمة والنشر واستقبال الكتاب العربي في السوق الروســية. ويأتي معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ودار الكتاب الشرقي للنشر، ودار العلم للنشر في مقدمة المهتمين بترجمة الأدب العربي، ومــن الترجمات المهمة التي صدرت عام 2009 عن دار العلم للنشر ترجمة كتاب رفاعة الطهطاوي: تخليص الإبريز في تلخيص باريز بتوقيع المستعربة ڤاليريا كيربيتشينكو.

أملت أعراف اقتصاد السوق على المشرّع الروسي سلوكاً جديداً، وحرر مبدأ التنافسية قطاع الترجمة والنشر من قبضة الدولة ورقابتها الصارمة، فانفرج الباب أمام مؤسسات الطباعة والنشــر التجارية والخاصة، وأصبحت موازين الترجمة على عاتق عملية العرض والطلب وغيرها من علاقات السوق الجديدة. في هذه الأجواء، وفيمــا يتعلق بالكتــاب العربي المترجم، ظهرت دارا نشــر اتخذت من ترجمة الأدب العربي وما ســواه من فــروع المعرفة العربية أولوية لعملهما، وهما دار مركز التعاون الإنساني للنشر، وتهتم بترجمة ونشر الأعمال الأدبية الحديثة وإعادة ترجمة ونشــر أعمال ســبق أن ترجمــت، والثانية دار بيبليوس ـ كونسالتينغ للنشر، وتقوم بترجمةِ ونشر الأدب العربي والمطبوعات الأخرى كالقواميس والمذكرات والكتب الوثائقية. وتشير نوعية الإصدارات التي خرجت من هذين الدارين إلى التركيز على الكتب التي تحظى بالشــهرة في الغرب. وفيما يتعلق بالأعمال الكلاســيكية، فقد أُعيد نشــر المقامات وبعض

الدواوين الشعرية، والحال نفسه فيما يخصّ الأعمال التي تستند إلى أحداث أو شخصيات تاريخية، كرواية الأمين والمأمون لجرجي زيدان، التي أُعيد نشرها في المرحلة الجديدة. مع ذلك تبقى حصة الترجمة لهذا النوع من الأدب العربي قليلة مقارنة بالفترة السابقة. الشيء نفسه ينطبقُ على كتب المذكرات وخطابات الشخصيات السياسية والعسكرية؛ مثل مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلي التي صدرت في الآونة الأخيرة. أما النصيب الأكبر من الترجمة والنشر (والحديث دائماً عن منشورات الدارين آنفتي الذكر) فيتعلق بالروايات الحديثة، وأهمها روايات نجيب محفوظ، حيث نشر مركز التعاون الإنساني ثلاث روايات لمحفوظ: رواية (أفراح القبة 2008) ورواية (رحلة ابن فطومة 2009) وإعادة ترجمة رواية (أولاد حارتنا 2011)، وجميع الروايات المذكورة من ترجمة كاتبة هذه السطور. روايات أخرى كانت محط اهتمام الناشرين لما أصابت من نجاحٍ داخل الوطن العربي وخارجه فتمّت ترجمتها إلى الروسية وهي رواية (عزازيل 2013) للكاتب المصري يوسف زيدان بترجمة باڤيل جولكين ومحمد نصر الدين الجبالي، وهي الرواية الوحيدة التي حازت جائزة البوكر العربية ويتمّ نقلها إلى الروسية. ثمة أيضاً ترجمة روايتي الكاتب المصري علاء الأسواني لما حققتاه من شهرة عالمية وهما رواية (عمارة يعقوبيان 2008) ورواية (شيكاغو 2012)، وهما من ترجمة كاتبة هذه السطور. إضافة إلى الأسماء المذكورة: هناك أسماء معدودة تُرجم لها إلى اللغة الروسية في الألفية الثالثة ومن أبرزهم: اليمني زيد مطيع دماج والموريتاني موسى ولد ابنو والسعودي هاني نقشبندي، إلى جانب مختارات من الأدب السعودي الحديث بترجمة أولغا فلاسوڤا. وفيما يتعلق بترجمة القرآن فقد حظيت ترجمة إلمير كلييف عام 2002 بالاعتراف العلمي والتقدير العالي من قبل المهتمين. وفي عام 2003 أنجزت آخر ترجمة للقرآن قامت بها المستعربة بيتسي شيدڤار.

أملت أعراف اقتصاد السوق على المشرّع الروسي سلوكاً جديداً، وحرر مبدأ التنافسية قطاع الترجمة والنشر من قبضة الدولة ورقابتها الصارمة، فانفرج الباب أمام مؤسسات الطباعة والنشر التجارية والخاصة.

إن اجتياز الترجمة من العربية في روسيا مرحلة تأسيسية، طويلة وشاقة، ونشوء الاستعراب الأكاديمي وما نتج عنه من نشاط في الترجمة واهتمام بترجمة القرآن، ومن ثَمَّ الخفوت الذي طرأ على هذه المسيرة، وتراجع حركة الترجمة، كل هذا يستحق وقفة تأمل ومراجعة. وفي هذا الصدد يرسم لنا الباحث في معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم الروسية ب. ف. جوستيرين صورة وافية للاستعراب الروسي في راهن وقتنا، ويجيب عن الأسئلة التي قد تتبادر إلى أذهاننا، وقد أعدّ تقريراً في هذا الشأن جاء تحت عنوان: «الإجراءات الملحة للاستعراب الروسي». ويمكن مطالعة التقرير بلغته الأصلية عبر هذا الرابط:
(http://arabinform.com/publ/ob_aktualnykh_zadachakh_rossijskoj_arabistiki/113-1-0-1131)

الأدب العربي المترجم في روسيا اليوم

علينا الاعتراف بأن الأدب العربي المُترجم إلى اللغة الروسية كان ولا يزال يحتل مساحة متواضعة في مكتبة القارئ الروسي. من جهة أخرى ـ وعلى سبيل المقارنة ـ تحتل الترجمة إلى اللغة الروسية مرتبة متأخرة في ترجمة الكتاب العربي، مقابل ما يترجم فيها إلى اللغات الأوروبية، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية. وبرأي أي مستعرب روسي على اطلاع بالإنتاج الأدبي العربي الحديث، فإن البون شاسع بين ما يصدر منه وما يترجم إلى الروسية، ويمكن وضع قائمة طويلة بأسماء الكتّاب الجديرين بالترجمة، والتي ستلاقي أعمالهم هوًى لدى القارئ الروسي، نذكر منهم: بهاء طاهر وإبراهيم عبد المجيد من مصر، ربيع جابر، وحسن داوود من لبنان، إبراهيم صموئيل من سوريا، فاضل العزاوي، ومحمد خضير من العراق، علي المقري، وأحمد زين من اليمن، رجاء العالم من السعودية. وإلى جانب إشكالية تواضع الترجمة من الأدب العربي إلى اللغة الروسية، ثمة إشكالية عدم مواكبة الجديد من هذا الأدب، ما يُفقد عملية الترجمة ـ بوصفها عملية رصد متكاملة ومستمرة ـ حيويتها ويُخل بأدائها. مثال على ذلك نجد أن الرواية المشهورة (عمارة يعقوبيان) للكاتب المصري علاء الأسواني والصادرة عام 2002 تترجم إلى اللغة الإنجليزية بعد عامين من

إصدارها، كما لم تتأخر ترجمتها إلى الكثير من اللغات العالمية (يشار إلى ترجمتها إلى 34 لغة)؛ بينما تمّت ترجمتها إلى الروسية عام 2008 في 5 آلاف نسخة. نقول ذلك مع علمنا بالفوارق الاجتماعية والثقافية بين الأوروبيين والعرب من جهة وبين الروس والعرب من جهة أخرى. فعدد الجالية العربية في أوروبا وطبيعة تواجدها في المهجر ونوعية أنشطتها هناك لا تقارن بأي حالٍ مع الجالية العربية في روسيا. مع ذلك فإن سوق الكتب الروسية نشطة ونهم القارئ الروسي كبير تجاه الآداب الأجنبية، ما يمكنه أن يعّوض ضمور النشاط العربي في روسيا (مقارنة بأوروبا)، ويزيد من حظوظ الترجمة في ملء الفراغ وإحراز نجاح ثقافي وتجاري على حدٍّ سواء.

المسألة الملحة برأينا تكمن في اختيار الأعمال للترجمة والترويج لها من قبل دور النشر الروسية؛ فالأدب العربي قد وقع ضحية الجري المحموم وراء الربح السريع في سوق الكتاب، واجتذاب القارئ عن طريق العناوين الصادمة.

المسألة الأخرى والملحة برأينا تكمن في اختيار الأعمال للترجمة والترويج لها من قبل دور النشر الروسية؛ فالأدب العربي قد وقع ضحية الجري المحموم وراء الربح السريع في سوق الكتاب، واجتذاب القارئ عن طريق العناوين الصادمة؛ إذ يتم الترويج ـ بين الحين والآخر ـ لروايات تقدّم جانباً ضيقاً من الحياة العربية، مليئاً بالقتل والرعب والكآبة مثل الرواية التي حملت عنوان «سعاد... المحروقة حية» عام (2009) بلا ذكر لاسم المؤلف، وتتحدث عن جرائم الشرف في جو كابوسي للحياة العربية، ورواية «المشوهة» (2007) بتوقيع كاتب يدعى هادي. وحتى لا نخرج عن دقة الطرح، فمؤلفي مثل هذه الكتب والروايات ليسوا دائماً عرباً، ولكن الموضوعات المقدّمة تدور في فلك العالم الإسلامي، ومن ثَمّ ـ وفي ظلّ نقص الكتب والروايات العربية الحقيقية والفنية والمتنوعة ـ يتشكل لدى القارئ الروسي تصور مشوه عن الأدب العربي على وجه الخصوص.

بعد كل شيء يبقى متوسط المعرفة بالأدب العربي لدى القارئ الروسي العادي مقتصراً على النصوص الشعبية الكلاسيكية؛ كقصص ألف ليلة وليلة، التي لا نبالغ إن قلنا: إنها موجودة في كل بيت روسي. أما المهتمون بالمشرق

العربي فتتسع دائرة معرفتهم بأدب تلك المنطقة لتحيط بالشعر الجاهلي ولا سيما شعر امرئ القيس، إلى جانب معرفتهم بالقامات الكبرى في الشعر الكلاسيكي كالمتنبي والمعري. وبالنسبة للمستعربين والمهتمين بالأدب العربي الحديث فغالباً ما نجدهم يتحدثون عن نجيب محفوظ (نوبل 1988). في هذه الحال، وفي ظل الفراغات التي تكتنف ترجمة الأدب العربي المعاصر والتعريف بكتّابه البارزين، تتأصل وتترسخ حتى تبلغ حالة شبه إسمنتية ما نسميه الكليشيهات الشرقية.

إشكالية أخرى يجدر التطرق إليها عند الحديث عن ترجمة الأدب العربي إلى الروسية، وعنها نترك الكلام لمديرة مركز التعاون الإنساني للنشر السيدة منى الخليل في لقاءٍ أجرته معها مجلة الشرق الروسية بتاريخ 22 ـ 03 ـ 2015 حيث قالت: «إن العقبة الأولى التي واجهتنا في مجال النشر هي البحث عن مترجمين، وذلك في وقت كان يشهد مواتاً في الترجمة الروسية للأدب العربي. بالتأكيد، ثمة الكثير من المستعربين الروس الذين يترجمون في مختلف المجالات ولكن ليس في مجال الأدب. لم يترجم الأدب العربي إلى الروسية منذ نحو 30 ـ 40 سنة. لم يكن هناك إقبال، ومن ثَمَّ توارى المتخصصون. وكما نعلم فالترجمة الأدبية مجال خاص والمتخصصون فيه نادرون. المشكلة الأخرى كانت مع المترجمين المخضرمين، الذين كانوا خبراء لامعين في العهد السوفييتي، ولكن اتضح أنهم ينقلون النصوص إلى لغة روسية تعود إلى زمنهم وتصعب قراءتها اليوم. وهنا رابط اللقاء كاملاً:

http://vostalk.net/o-egipetskoj-literature-v-rossii/

يبدو واضحاً أن الإهمال الذي يعتري ترجمة الأدب العربي في روسيا يجري في إطار معقد ومتعدد الأبعاد. وعندما نتحدث عن الترجمة كماهية اجتماعية وثقافية مرتبطة بصيرورة الحياة المعاصرة؛ نرى أن الاحتكاك الضعيف بين الثقافتين الروسية والعربية خلال قرون عديدة أدى إلى محدودية الانفتاح بين الجانبين، وقصور في استيعاب النصوص الأدبية استيعاباً وافياً ومكتمل الأركان. ثمة مسائل معرفية وتقنية خاصة في إبداع النصوص وطريقة خلقها تختلف جذرياً بين اللغتين العربية والروسية، وهذه الفوارق لا تذلل إلا

بالترجمة الأصيلة وبانفتاح معرفي واسع بين الثقافتين. مثال على ذلك نجده في النص الروسي الذي لا يحتمل تكرار المُفردة نفسها في جملتين متجاورتين، ومن غير المستساغ فيه استخدام سلسلة من المترادفات والصفات بينما يحتملها النص العربي. ثمة أيضاً الاختلاف البيّن بين الجغرافيا العربية والروسية، وما أفرزته من تقاليد ومظاهر ثقافية وظواهر لغوية تزيد من صعوبة التواصل بين الفريقين... ومرة أخرى فالمزيد من الانفتاح يؤدي إلى المزيد من الانسجام.

إنّ الاحتكاك الضعيف بين الثقافتين الروسية والعربية خلال قرون عديدة أدى إلى محدودية الانفتاح بين الجانبين، وقصور في استيعاب النصوص الأدبية استيعاباً وافياً ومكتمل الأركان.

وإلى جانب المشاكل اللغوية البحتة التي تواجه الترجمة والمتعلقة بخصوصية التراكيب والنحو لكلتا اللغتين، والتي لا شكّ تضع بعض العراقيل في حركة الترجمة، ثمة مشكلة الكتب المُختارة للترجمة، فهي إما أن تكون غير ممتعة للقارئ الروسي، أو أنها تضعه (القارئ) أمام تحديات اللغة وتراكيبها غير المألوفة؛ بمعنى آخر فإن المترجم يقوم بإدخال القارئ في دهاليز اللغة وتعقيداتها بدل أن يمهد له الطريق إلى النصّ وأجوائه الطبيعية.

وإذا ما تتبعنا جذور هذه الإشكالية في مدرسة الترجمة العربية ـ الروسية، نجد أن الاتجاه القائل بالمحافظة على خصوصية اللغة العربية ونقلها إلى الروسية بمنطقها الخاص وصفاتها الحميمة، نجد أن هذا الاتجاه كان الغالب على اشتغال المستعربين الروس في تراجمهم من العربية. لقد ظلّوا يعالجون النصوص العربية من منطلق عاطفي، وتقدير جمالي أدركوه من مزاولتهم الطويلة في اللغة العربية وآدابها، وفي الأخير جاءت ترجماتهم كفيضٍ من مشاعرهم الجياشة تجاه الثقافة العربية وسحر لغتها. ولكن ـ وعند النظر إلى الترجمة من زاوية المتلقي ـ نجد أن النصّ الذي وصله قد تسللت إليه نسخ من التراكيب اللغوية العربية والكليشيهات التي لا يفكّ شفرتها غير المتخصصين باللغة العربية، ومن ثَمَّ يضيع مضمون الكِتاب عن القارئ العادي

ويفقد جماليته الكبرى. إن الحفاظ على ميزات اللغة العربية في نصّ الترجمة قد يثير الاهتمام كتجربة لغوية فحسب، وهذا أمر من شأنه أن يجتذب المولعين بالشرق الغريب والخرافي والمنغمسين في عوالمه وهم قلة ولا يشكلون هدفاً لمشروع جاد واستراتيجي للترجمة.

على الرغم من وجود الأُسس العلمية للترجمة من اللغة العربية إلى الروسية، ومع توفر الأطر الجامعية لدراسة اللغة العربية، إلا أن الفارق ما زال كبيراً بين الموجود وبين ما يجب أن يكون. هذا أمر يضعنا أمام سؤالين جذريين بأقل تقدير:

1 ـ ألا يؤدي نقص الترجمة إلى تبديد الخبرة التي تراكمت عبر السنين؟

2 ـ كيف سيؤثر ذلك على مستقبل هذه الترجمة؟ لا نشكُّ في أن نوعية الإبداع العربي المعاصر تمتلك قابلية كبيرة للترجمة في روسيا، فالسردية العربية التي تقوم على تقاليد أدبية ثرية، والتطور الذي يصاحبها ويتمخض عنها، ومواكبة الأدب العربي للحركة الأبداعية العالمية، والقضايا المختلفة التي يتناولها، كل هذا جدير بالاطلاع عليه والنقاش حوله من قبل القارئ الروسي، لا سيما في زمن العولمة الذي يشهده الجيل الحالي. من جانبٍ آخر ـ وخلال العقدين الماضيين ـ لم تفلح الدراسات الإنسانية العربية، أو مثيلاتها المتخصصة بالمنطقة العربية، في أن تكتسب أهمية بالغة على المستوى العالمي، ومن ثَمَّ لا تستقيم معرفة هذا الجانب إلّا عن طريق الترجمة. كما أن المعلومات الهائلة التي تضخها وسائل الإعلام عن العالم العربي، وتنتشر في مختلف أرجاء المعمورة، هذه المعلومات الكثيفة والسريعة التي يتلقاها الفرد الروسي عبر الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي بحاجة إلى وعي نقدي لفرزها وتنقيتها، ولا يتأتى ذلك إلا بترجمة الكتب العربية، وترجمة الأدب العربي على وجه الخصوص. أخيراً، تشير مجريات الأحداث الأخيرة إلى أن روسيا بصددِ التأكيد على وجودها في الشرق الأوسط، وهذا من شأنه (أو هكذا يحتّم المنطق) أن يدعم الاهتمام بترجمة اللغة العربية وآدابها.